

المحاضرة رقم: 04 في النقد الثقافي

نظرية نقد الاستشراق عند "إدوارد سعيد"

***تمهيد:** (التعريف بإدوارد سعيد):

هو "إدوارد وديع سعيد" الذي يعدّ من الشخصيات المؤثرة واللامعة التي أحدثت ضجة فكرية عارمة في عدّة مجالات معرفية، فهو موسوعة بمعنى الكلمة وذلك لأنه نظّر فعليا لمسألة الثقافة والفلسفة والفكر الإنساني عموما على رحابة فضائه، إذ هو ميدان لا يمكن لأيّ كان أن يلجه ويخوض غماره إلا من كان مقتدرا وصنديدا مثل الناقد "إدوارد سعيد".

الأكاديمي الأمريكي والكاتب الفلسطيني الأبرز والأشهر "إدوارد سعيد" (1935-2003) يعدّ أحد الرّواد المنظرين الذين قاموا بوضع الحجر الأساس لبناء لبنات النظرية ما بعد الكولونيالية، وهو الأمريكي الجنسية العربي الفلسطيني الأصل، المولود بالقدس، تخرّج من كلية فكتوريا بالقاهرة وأكمل دراسته بجامعة بريستون في أمريكا، نال درجة الماجستير والدكتوراه من جامعة هارفرد التي تخرّج منها ودرس بها أعلام النقد الجديد وأساطين الاستشراق الأمريكي، ظلّ يعمل "سعيد" أستاذا للأدب الإنجليزي وشغل منصب رئيس قسم الأدب المقارن في جامعة كولومبيا في نيويورك. ولقد أشار الناقد الإنجليزي "تيري أنجلتون" إلى تفرّد صوت "سعيد" النقدي واستقلاله الفكري، وربما كان "سعيد" عصيًا على التصنيف لأنّه لا ينخرط في مدرسة نقدية معيّنة بل له تصوّره الخاص¹. لذلك حازت العديد من أعماله على جوائز مرموقة.

*01/ أهمية "إدوارد سعيد":

تتبع أهمية "إدوارد سعيد" النقدية من اتجاhein مزدوجين هما: -محاوراته مع المستشرقين -ومؤلفاته النقدية الكثيرة والمتنوعة التي أحدثت صدى واسعا لدى النقاد سواء في الغرب أم الشرق؛ فقد حاور "إدوارد سعيد" المستشرقين في بريطانيا وأمريكا، وكشف خطورة المعرفة غير المقترنة بالشّجاعة على الاعتراف بالآخر، بعرقه وجنسه وثقافته وحضارته ووطنه، كما وجّه كثيرا من همومه إلى وطنه المحتل فلسطين².

وفضلا عن هذا فإنّ أهمية "إدوارد سعيد" تتبع من كونه ناقدا ثقافيا يمارس دوره داخل المؤسسة الأكاديمية المستقلة (الجامعة) مع إسهاماته النقدية العديدة والواسعة واشتباكاتة الثقافية مع المجتمع

¹ نادية بوحاريش: النظرية ما بعد الكولونيالية أرضية الفكر المتنوّر، الماهر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2019، ص109.

² طلعت عبد العزيز أبو العزم: أدب ما بعد الاستعمار ونظريته النقدية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، مصر، ط1، 2015، ص32.

الأمريكي، اشتباكات جادة تثير جدلاً واسعاً وفي رؤيته المعرفية النقدية عن الاستعمار يرى أن جميع أشكال المعرفة قد كرسها الاستعمار لتقوية سطوته الامبريالية على الشرق... ويرى كثير من الدارسين والنقاد أن النظرية النقدية لأدب ما بعد الاستعمار (Post colonial theory) قد تبلورت بصورة واضحة إثر ظهور كتابي "إدوارد سعيد" الاستشراق (Orientalisme) والثقافة والاستعمار (Culture and imperialism)¹.

*02/ مفهوم الاستشراق بشكل عام:

أيسر التعريفات المقبولة للاستشراق، هو أنه مبحث أكاديمي؛ فالمستشرق كل من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء البحوث في موضوعات خاصة بالشرق، سواء كان ذلك في مجال الأنثروبولوجيا أي علم الإنسان، أو علم الاجتماع، أو التاريخ، أو لغة، وسواء كان ذلك يتصل بجوانب الشرق العامة أو الخاصة، والاستشراق إذن وصف لهذا العمل.

صحيح أن الاستشراق مصطلح لم يعد يتمتع بالحظوة القديمة؛ فالمتخصصون يفضلون استخدام مصطلح الدراسات الشرقية، أو مصطلح دراسة المناطق، لسببين: السبب الأول هو أنه يتسم بقدر أكبر مما ينبغي من الغموض والتعميم، والثاني هو أن من ظلال معانيه الإيحاء بالاستعلاء الذي كان المديرون الأجانب يتسمون به في عهد الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين².

وللإستشراق معنى أعم وأشمل، فهو أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى "الشرق"، وبين ما يسمى (في معظم الأحيان) "الغرب"، وهكذا فإن عدداً بالغ الكثرة من الكتاب، من بينهم شعراء، وروائيون، وفلاسفة، وأصحاب نظريات سياسية، واقتصاديون، ومديرون امبرياليون، قد قبلوا التمييز الأساسي بين الشرق والغرب باعتباره نقطة انطلاق لوضع نظريات مفصلة، وإنشاء ملاحم وكتابة روايات وأوصاف اجتماعية، ودراسات سياسية عن الشرق وعن أهله وعاداته وعن "عقله" ومصيره، وهلم جرا³.

*03/ مفهوم الاستشراق عند "إدوارد سعيد":

¹ طلعت عبد العزيز أبو العزم: أدب ما بعد الاستعمار ونظريته النقدية، ص33.
² إدوارد سعيد: الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عتاني، رؤية، مصر، ط1، 2006، ص44.
³ المصدر نفسه، ص45.

يقول "إدوارد سعيد": "يمكننا أن نناقش ونحلل الاستشراق باعتباره مؤسسة مشتركة للتعامل مع الشرق، والتعامل يتخذ صورة الحديث عنه، والترخيص بإصدار آراء معينة عنه، ووصفه وتدريسه وإشاعة الاستقرار فيه، والتحكم فيه أيضا، والاستشراق باختصار هو الأسلوب الغربي للسيطرة على الشرق وإعادة بنائه، وبسط النفوذ عليه"¹. ومن ثمّ يمكن القول: أنّ الاستشراق هو أسلوب اتبعت الثقافة الأوروبية من أجل إدارة الشرق سياسيا واجتماعيا وعسكريا وايدولوجيا وعلميا وخياليا كذلك.

*04/ فلسفة منهجه:

منذ بدايته كان لاهتمام "إدوارد سعيد" بالفلسفة من وراء نظريته "التكاملية" في الأدب؛ وهي التي سوف تؤدي إلى ترسيخ مذهب في النقد الثقافي الذي يربط ما بين الأدب باعتباره ظاهرة إنسانية تقوم على الإبداع (والتخييل) وبين حقائق الواقع والتاريخ والمجتمع والفكر الإنساني، وهو مذهب تكاملي ودينامي معاً، بمعنى أنّه إلى جانب الجمع بين الظواهر المختلفة في المجتمع، والتي يكمل بعضها بعضاً، يصرّ على أنّ هذه الظواهر غير ثابتة وأنها تتحرك وتتغير وتتلون، وهي تتأثر بمسار التاريخ وفكر الإنسان مثلما تؤثر فيهما، ومن ثمّ فإنّ الأدب مادام ظاهرة إنسانية فهو يرتبط بكلّ شيء².

لقد ساهم "إدوارد سعيد" في تدعيم أسس ما يسمّى بالنقد الثقافي بفضل كتابه: الاستشراق، لما أصبح يسمّى فيما بعد ب: نقد الاستعمار (Colonial critique)، أو ما يسمّيه "إدوارد سعيد" ب: نقد ما بعد الاستعمار (Postcolonial criticism)، ومن أهمّ ظواهره هو قيام أبناء البلدان التي تحرّرت من الاستعمار بإعادة النظر في التركة الاستعمارية؛ وهو ما يتجلّى في آدابهم وما أتى به من مجالات جديدة للدراسات النقدية، إذ انتشرت في بلدان العالم الثالث الدراسات التي تناقش المواقف الثقافية الكامنة في نظرة أبناء هذه البلدان إلى ذواتهم، وهي نظرة دونية ترجع إلى ما ورثه هؤلاء من التركة الاستعمارية التي ساهم فيها المستشرقون، كما شجّع النقد الثقافي الذي يمثله الاستشراق على ازدهار نظريات النقد النسوي التي تقوم على ضرورة إعادة النظر في صورة المرأة لا في المجتمع فحسب³.

¹ طلعت عبد العزيز أبو العزم: أدب ما بعد الاستعمار ونظريته النقدية، ص34.

² إدوارد سعيد: الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ص22.

³ المصدر نفسه، ص29.

فالمستشرقون ينطلقون مهما اختلفت مذاهبهم من الإيمان بوجود صورة ثابتة جامدة لما أسموه بالشرق، وفيها تظل المرأة كما هي إلى الأبد، كائنًا مسلوب الإرادة والفكر، أي إنهم بإنكارهم عوامل التاريخ ينكرون التطور بل كما يقول "إدوارد سعيد": يسلبون الإنسان إنسانيته.

وهذا فرع مهم في النقد الثقافي؛ لأنه يعيد وصل ما انقطع من وشائج بين الكاتب الفرد وبين ثقافة عصره، وهي الثقافة التي يرثها من الأسلاف مثلما ينتشر بها من المناخ الذي يحيط به، فصورة المرأة التي نراها في الأعمال الأدبية القديمة ليست مطلقة مجردة بل هي من ثمار عصر معين ومن نتاج ثقافة معينة، ولا مدخل لتفهمها بالأسلوب الصحيح إلا بدراسة هذه الثقافة¹.

وإن شئنا تلخيص منهج "إدوارد سعيد" في كلمة أو كلمتين، قلنا: إنّه موقف يقوم على الإيمان بإنسانية الإنسان وقدرته على تخطي حدود الزمان والمكان، فهو في كل مكان على وجه الأرض ينبض دائما بنبض الحرية، ولذلك فـ"إدوارد سعيد" يعجب ويندهش عندما تبين خداع الغرب لذاته وتتكبر لما يدعو إليه ويتغنى به منذ عصر النهضة الأوروبية ويعجب ويندهش أيضا حينما يلح ما وقع فيه كبار المبدعين من تزييف لحقائق الواقع بسبب غلبة الإطار الفكري الذي أقامه كبار المستشرقين بدعوى العلم والمعرفة فأوقعوا فيه قلوبا وعقولا كثيرة².

*05/ المعرفة والاستشراق:

يرى "سعيد" في كتابه الاستشراق أنّ النصوص الأدبية والثقافية لها أبعاد سياسية واجتماعية، فهناك إذن علاقة بين المجتمع والسياسة من جهة، والنصوص الأدبية والثقافية من ناحية أخرى، وفضلا عن هذا يرى "سعيد" أنّ كلّ المعرفة لها أبعاد أساسية تعكس مصالح ورغبات أولئك القائمين على إنتاج تلك المعرفة، وهو بهذا الرأي يختلف عن الاتجاه السائد بين المفكرين؛ الذي يرى أنّ المعرفة الحقيقية ليس لها شأن بالسياسة³.

وهكذا نرى رؤية "سعيد" للمعرفة، فكّل المعرفة-في رأيه- لها أبعاد سياسية، ولكن بعض المثقفين قد ادّعوا أنّ المعرفة الأكاديمية يجب ألا تكون سياسية، لكن "سعيد" في ردّه عليهم في كتابه الاستشراق وضح أنّ كلّ كاتب يعيش في موقع اجتماعي عقائدي يؤثر على ما يؤدّيه من الناحية المهنية، ولا يمكن

¹ إدوارد سعيد: الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ص30.

² المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ طلعت عبد العزيز أبو العزم: أدب ما بعد الاستعمار ونظريته النقدية، ص34.

لأحد أن يبعد الكاتب عن ظروف الحياة الاجتماعية وبالتالي، السياسية، يقول إدوارد سعيد في هذا: "...لم
يقم باكتشاف وسيلة يمكن بها إبعاد العالم-بكسر اللام- عن ظروف الحياة، عن حقيقة انغماسه بوعي أو
بغير وعي في طبقة، مجموعة من المعتقدات، موقع اجتماعي، أو مجرد كونه عضواً في مجتمع تلك
الأشياء تظل تؤثر على ما يؤديه من الناحية المهنية، حتى ولو أن أبحاثه ونتائجها حاولت الوصول إلى
مستوى معين من الحرية والابتعاد عن معوقات الواقع اليومي القاسية"¹.

وهكذا يتضح لنا أن دراسة الاستشراق من خلال كتاب "إدوارد سعيد" تعني دراسة الأساليب التي نظر
بها الغرب إلى الشرق الأوسط، والعرب والإسلام، خلال قرنين من الزمان، فهذه الأساليب لها قوة وخيال
موروث، ويقدم "سعيد" في كتابه الاستشراق الشواهد التي قدمها الغرب الاستعماري لإثبات حقيقة تفوقه
عن الشرق، ويتخذ "سعيد" من محوري المعرفة/القوة اللذين امتلكهما الغرب أساساً وثيق الصلة في هذه
الدراسة.

إن دراسة الأساليب التي نظر بها الغرب الاستعماري إلى الشرق لها مناهج، وهذه المناهج في نظر
النقاد ما هي إلا أشكال ملائمة من المعرفة عن المستشرقين، بما يجعله يعرف بصورة قوية عن الشرق،
وما نجاح الغرب في استعمار الشرق إلا تأكيد لصحة هذه المعرفة وضرورتها، بل إنه يخلق مجالا محدداً
للإنتاج المستقبلي المعرفي الغربي عن الشرق، بما يساعده من بسط سطوته وامتداد سيطرته الاستعمارية
على الشرق.

وقد تنبّه "سعيد" إلى هذه المناهج المعرفية التي استخدمها المستشرقون لدراسة الشرق، واهتم بدراساتها
ونقدها في كتابه الاستشراق، مما لفت إليه نظر نقاد الغرب، ووجدوا أن دراسته لهذه المناهج بقوة دافعة
تعدّ أحد أهم إسهاماته لتحليل الخطاب الاستعماري (Colonial Discourse)، ونظرية ما بعد
الاستعمار (Post colonial theory).

كما اهتم "سعيد" في نقده للاستعمار والاستشراق بدراسة العلاقة بين الاستعمار والأدب، ووجد أن أغلبية
المناهج الاستعمارية تتداخل مع الأدب، وقد أثارت اهتماماته النقدية هذه انتباه النقاد والدارسين، فقد كانت
الفكرة الشائعة قبل كتابي الاستشراق والثقافة والامبريالية لـ "سعيد" تفيد أن الأدب ليس به أي شيء يفيد
السياسة، ذلك أن للأدب موضوعه وشخصيته وفرديته المستقلة، ثم تغير الموقف بعد كتابات "سعيد"

¹ طلعت عبد العزيز أبو العزم: أدب ما بعد الاستعمار ونظريته النقدية، ص35.

النقدية ، حيث اتّضح أنّ الخطاب الاستعماريّ المرتبط بالسياسة يتداخل مع الدّراسات الأدبيّة إلى حدّ كبير .

*06/الانتقاد الذي وجهه إلى "إدوارد سعيد":

اكتسب كتاب (الاستشراق) لـ "إدوارد سعيد" أهميّة كبرى سواء في الشرق أو الغرب، ولفت بآرائه الجريئة نظر الكثير من النّقاد والدّارسين الغربيين والشرقيين، وادّعى بعضهم أنّ "سعيد" ينسج أفكار العالم الفرنسيّ "ميشال فوكو"... لكن "إدوارد سعيد" نفسه لا ينكر أنّه استفاد كثيرا من مفهوم العالم الفرنسيّ "ميشال فوكو" عن المعرفة/القوة، فمن يملك المعرفة يمتلك القوة، والمعرفة تجعل القوة تزدهر لكنّها قد تحدث أيضا بواسطة عمليّات القوة، فالمعرفة طبقا لرأي "فوكو" تمثّل خطابا (Discourse)، وهذا الخطاب يرتبط ارتباطا وثيقا بالقوة وإذا كان "ميشال فوكو" وليد مجتمع غربي استعماريّ فإنّ إدوارد سعيد" وليد مجتمع شرقيّ عانى من سيطرة الاستعمار الغربيّ وقهره، لامتلاكه المعرفة والقوة¹.

لكنّ "سعيد" في نقده للاستشراق يضيف أنّه يرى أنّ الخطاب الاستعماريّ يشمل كلّ أنواع الخطاب عن الشرق، فهو إذن لا يفرّق بين نصوص أدبيّة وأخرى غير أدبيّة، وكلّ هذه النصوص تتحد لتكون خطابا متناسقا مثل رؤية سلبية للشرق في نظر الغرب الاستعماريّ ويؤكد "سعيد" في بداية كتابه الاستشراق على أنّه يفيد كثيرا من مفهوم الفرنسيّ "ميشال فوكو" ، حين يؤكّد أنّ المعرفة تمثّل خطابا يرتبط إنتاجه ارتباطا وثيقا بالقوة، وفي كلّ الكتاب يلاحظ القارئ أنّ "سعيد" لا يفرّق بين نصوص أدبيّة وأخرى غير أدبيّة، حيث يرى "سعيد" أنّ جميع هذه النصوص تتحد لتكون خطابا متناسقا عمل على تمثيل رؤية سلبية للشرق، فكلّ أشكال الخطاب عن الشرق سواء أدبيّة، فكريّة، وسياسيّة تستعير من بعضها البعض، حتّى أنّه لا يمكن دراسة نصّ بمعزل عن النصوص الأخرى، فكلّ الكتابات عن الشرق كانت تنطلق من أساس اعتقاد راسخ أنّ الهوية الأوروبيّة أسمى وأعلى من أيّ هويّة أخرى².

ومها يكن النّقد الموجه لـ "سعيد" فسيظلّ كتاب الاستشراق كتابا متمردا على الحدود التي رسمتها مباحث المعرفة والسّلطة الاستعماريّة، وقد فتح كتاب الاستشراق لـ "إدوارد سعيد" المجال أمام كثير من الباحثين لدراسة أثر الاستشراق على المجتمعات العربيّة والإسلاميّة، حيث أكّد الدّارسون أنّ المستشرقين هم المصدر المعرفيّ الأساسيّ للمعلومات الخاصّة بالشرق والإسلام والمجتمعات الإسلاميّة، حيث

¹ طلعت عبد العزيز أبو العزم: أدب ما بعد الاستعمار ونظريّته النقدية، ص39.

² المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

استطاعوا بهذه المعلومات تقديم صورة مزيفة مشوهة عن الشرق والعالم الإسلامي في الخارج، مما أسهم في إعطاء انطباع سلبي للإسلام كدين وحضارة، فالاستشراق من أهدافه التعتيم على المثقف الغربي، وتفسير الغرب من الإسلام كدين وحضارة، وكلمة المستشرقين مسموعة في الغرب، لأنهم علماء تخصصوا في دراسة الإسلام والمجتمعات الإسلامية، وقد اكتسبوا ثقة الإنسان الغربي بما يمثلونه من علم ومن خبرة، استعان بها الغرب الاستعماري في شؤون تجاه العالم الشرقي والإسلامي¹.

وفضلا عن هذا أكد الدارسون أن من آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، العمل على إحياء ثقافات النزعة القومية داخل هذه المجتمعات، مما يسهم في تجزئتها وتفتيتها وليس توحيدها، بالإضافة إلى تشتيت الجهود الفكرية والثقافية والعلمية للمسلمين، بإشغالهم في الرد على النظريات والمذاهب الغربية غير الصالحة للمجتمع المسلم².

لقد كان للمستشرقين موقف من اللغة العربية الفصحى، فرأوا أنها بدوية لا تصلح للتعبير عن المصطلح العلمي الحديث، وغير قادرة على استيعاب ألفاظ الحضارة الحديثة، بينما مدحوا اللهجات العربية العامية ودعوا إلى اتخاذها وسيلة للتعبير، بل اتهموا الخط العربي بالصعوبة ودعوا إلى التخلص منه، واستخدام الخط اللاتيني بدلا منه³.

وذهب نقاد آخرون مذهب "إدوارد سعيد" في نقده للاستشراق، فرأوا أن الصورة الشمولية التي قام ببنائها الاستشراق الأكاديمي الثقافي عن الشرق تتطوي أساسا على مواقف عنصرية، وعلى تفسيرات اختزالية لواقعه، وعلى أحكام تقييمية إنسانية بحق شعوبه ومجتمعاته، وعلى آثار المصالح المادية النابعة من منافع إخضاعه واستغلاله، بعد دراسته وأثناءها، بل إن الاستشراق بصفة عامة هو عملية تشويه لواقع الشرق وتحقير لوجوده من جانب الغرب⁴.

¹ محمد خليفة حسن: آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1997، ص20.

² المرجع نفسه، ص197.

³ المرجع نفسه، ص120.

⁴ طلعت عبد العزيز أبو العزم: أدب ما بعد الاستعمار ونظريته النقدية، ص41.